
بہجۃ الناظر

فی التوسل بالنبی الطاهر

تألیف

مخادم العلم الشریف

حسین السقاف

القمرشی الهاشمی الحسینی الشافعی

۱۴۰۵ھ - ۱۹۸۵م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى ، والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى ، القائل لنبيه المكرم ، صلى الله عليه وآله وسلم ، سنقرئك فلا تنسى ، أحمدته سبحانه أن جعل نبينا أفضل الخلق على الإطلاق ، إذ أخذ سبحانه من جميع الأنبياء على أن يؤمنوا به وينصروه العهد والميثاق . وأشهد أن لا إله إلا هو الملك الحق المبين المنفرد بالخلق والتأثير والضر والنفع للعالمين ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الصادق الوعد الأمين والمبعوث رحمة للعالمين القائل : « إنما أنا رحمة مهداة »^(٢٢٥) ، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى كافة الأنبياء والمرسلين وآل كل وصحب كل أجمعين .

أما بعد :

فهذه رسالة أذكر فيها إن شاء الله تعالى أدلة التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم والاستشفاع به خاصة ، وبالأنبياء والصالحين عامة ، وبيان أن ذلك من الأمور المشروعات المندوبات بخلاف ما يدعيه بعض الناس في هذه الأزمان ، والله أسأل وبنبيه أتوسل أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم ، وأن يثيبني ومن رعاها أو نشرها إنه جواد كريم .

وقد جعلتها أربعة فصول :

— الفصل الأول : مقدمة في بيان قدره العظيم صلى الله عليه وآله وسلم .

— الفصل الثاني : في سرد أدلة التوسل بذات الأنبياء عامة والنبي خاصة وبجاههم ومنزلتهم عند الله تعالى صلوات الله وسلامه عليهم إذ الصفة لا تفارق الموصوف .

— الفصل الثالث : في الاستئناس بأقوال علماء الأمة وحفاظ الإسلام بإيراد توسلهم بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم .

— الفصل الرابع : في رد شبه مانعي التوسل وبيان مغالطتهم للحق الصريح وذكر قاعدة عظيمة في مصطلح الحديث في بيان أنه لا يجوز لأي إنسان أن يصحح أو يضعف حديثاً إلا أن يكون حافظاً^(٢٢٦)

(٢٢٥) رواه الحاكم عن أبي هريرة مرفوعاً وقال على شرطهما وأقره اللعبي وهو في مقدمة الدارمي (١٥) مرسلًا .

(٢٢٦) كنت أقول هذا إذ ذاك إبان تصنيف هذه الرسالة سنة ١٩٨٤ تقريباً والآن أقول بأنه يجوز أن يصحح ويضعف كل من تمكن وقويت معرفته وإن لم يكن حافظاً بالمعنى المشهور ، وهذا ما نص عليه النووي رحمه الله تعالى في التقريب .

وتعريف الحافظ سيمر هناك إن شاء الله تعالى .

الفصل الأول

مقدمة

في بيان عظيم قدره صلى الله عليه وسلم

اعلم برحمك الله تعالى أن الآيات والأحاديث والآثار في ذلك كثيرة جداً أفرد لها حفاظ الإسلام مصنفات خاصة من أعظمها عندي بركة ونفعاً كتاب الشفا ، للحافظ القاضي عياض المالكي رحمه الله تعالى ، ونحن نريد أن نوجز الأدلة في ذلك ، إذ ما نحن إلا عائلة على فتات موائد أولئك الأعلام العظماء رضوان الله عليهم أجمعين .

فاعلم أن من عظم قدر نبيك المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ، أن الله عز وجل نادى جميع الأنبياء بأسمائهم ولم يتدعهم باسمه ، فقال في ندائهم يا نوح ، يا إبراهيم ، يا آدم ، يا موسى ، وقال له يا أيها النبي ، يا أيها الرسول ... وقد أخذ الله عز وجل الميثاق والعهد من الأنبياء أن يؤمنوا به ، وأن ينصروه إن أدركوه إذ قال سبحانه ولم يزل قائلاً عليماً تنبيهاً لقدر نبيه وتفخيماً : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (آل عمران الآية ٨١) .

ولهذا قال سادتنا علي ابن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهم وقتادة والسدي وقريب منه قول الحسن وطساووس كما ذكر ذلك الطبري وابن كثير وغيرهما من أهل التفسير : ما بعث الله نبياً من الأنبياء من لدن نوح إلا أخذ الله منه الميثاق ليؤمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ولينصرنه إن خرج وهم أحياء ، ولهذا فما من نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلا عنده علم به صلى الله عليه وآله وسلم وبعثته وزمانه ومهاجرة^(٢٢٧) وعلاماته وأوصافه صلى الله عليه وآله وسلم . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ البقرة : ٨٩ بل لم تعرف له صلى الله عليه وآله وسلم قدره الأنبياء فحسب ، وإنما عرفت له قدره الأشجار والأحجار وشهدت له بالرسالة لتحث الناس على الإيمان به ، فأما الأشجار :

(٢٢٧) مهاجرة بفتح الجيم مع ضم الميم أي المكان الذي سيهاجر إليه وهو المدينة المنورة .

فمن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سفر ، فأقبل أعرابي ، فلما دنا منه قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أين تريد ؟ » قال : إلى أهلي . قال : « هل لك في خير ؟ » قال : وما هو ؟ قال : « تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله » ، قال : ومن يشهد على ما تقول ؟ قال : « هذه السَّلَمة » — يعني الشجرة — فدعاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهي بشاطئ الوادي ، فأقبلت تحبذ الأرض حذاً — أي شفاً — حتى قامت بين يديه فأشهادها ثلاثاً فشهدت ثلاثاً أنه كما قال ، ثم رجعت إلى منبتها ، ورجع الأعرابي إلى قومه وقال : إن اتبعوني آتاكم بهم وإلا رجعت فكنت معك . رواه الدارمي والطبراني في الكبير وأبو يعلى والبيهقي ورجال الصحيح^(٢٢٨) كما قال الحافظ الهيثمي .

وأما الأحجار وشهادتها :

فقد روى مسلم في صحيحه (٢٢٧٧) والدارمي في مسنده (٢٠) وغيرهما بأسانيد صحيحة من حديث جابر بن سمرّة رضي الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول : إني لأعرف حجراً بمكة كان يُسَلِّمُ عليّ قبل أن أُبعث إني لأعرفه الآن^(٢٢٩) » . وفي مستدرك الحاكم عن سيدنا علي رضي الله عنه قال : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكة فخرج في بعض نواحيها فما استقبله شجر ولا جبل إلا قال السلام عليك يا رسول الله » قال الحاكم هنا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الحافظ الذهبي^(٢٣٠) .

(٢٢٨) انظر « مجمع الزوائد » ٢٩٢/٨ ، و « جمع الفوائد » ، وستن الدارمي (١٦) وهو حسن .
(٢٢٩) انظر « صحيح مسلم » ج ١/١٧٨٧ في كتاب الفضائل الحديث الثاني .
(٢٣٠) « المستدرك » ٦٢٠/٢ .

الفصل الثاني

بيان مشروعية التوسل وندبه

اعلم يرحمك الله تعالى أنه من الغريب جداً أن ينكر بعض من يدعي العلم وبخاصة علم الحديث الشريف (في هذه الاعصار) التوسل برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سواء كان ذلك قبل وفاته أو بعد وفاته أو في يوم القيامة^(٢٣١) . والحقيقة أن إنكارهم هذا لا دليل له مع معارضته للنصوص الصريحة الصحيحة كما سيتبين لك ، مع أن المسلمين علماءهم وعوامهم منذ عهد النبوة إلى هذا اليوم لا يزالون يتوسلون به صلى الله عليه وآله وسلم ويسألون الله بجاهه ، وما أنا ذا أنقل لك ما استطعت أن أجده من الأدلة في مشروعية وندبة التوسل بالنبي والأنبياء والصالحين ، ولا أدعي في ذلك أنني قد سبقت إلى شيء لم يسبقني إليه أحد من قبل ، هذا مع قلة بضاعتي وضعف حيلتي وما غاب عني من الأدلة أكثر مما وجدته . ونحن بهذا الصدد نبين أن التوسل جائز وسائغ عند أهل الحق ، وذلك على مقتضى الأدلة الشرعية التي وردت لنا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وليس في ذلك أدنى شبهة بشرك كما يقول بعض الناس لأن الله تعالى هو المدعو وحده ولا شريك له في الخلق والتأثير وهذه عقيدة كل مسلم . ويجمع الأدلة كلها ويكفيها دليلاً في ذلك حديث الشفاعة يوم القيامة المتواتر من أن الناس في الآخرة يستشفعون الله تعالى برسله عليهم الصلاة والسلام ليأذن في فصل القضاء ويعتذرون واحداً حتى يرسلو الأمر عند سيدنا محمد عليه وعلى آله الصلاة والسلام فيقول (أنا لها)^(٢٣٢) ويشفع بسأل الله الإذن في فصل القضاء للخلاص من حر الموقف وشدة ما إلى الجنة وإما إلى النار وهذه هي الشفاعة العظمى لله صلى الله عليه وآله وسلم وله بعد ذلك شفاعات عديدة وكثيرات مذكورات في الأحاديث الصحيحة . ومن شفاعاته في الدنيا بعد موته صلى الله عليه وآله وسلم أنه يستغفر للمسيئين من أمته ، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله

(٢٣١) ولاحظ أنني لم أقل سواء كان حياً أو ميتاً لأنه صلى الله عليه وسلم حيٌّ ﴿ بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ ، وقد صنف في ذلك رسالة نقلت فيها بعد ذكر الأدلة التي منها الحديث الصحيح « الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون » كلام الحافظ البيهقي والحافظ القرطبي وابن القيم والسيوطي كما في كتاب « الروح » لابن القيم أن الأنبياء والشهداء أحياء .

(٢٣٢) الشفاعة ثابتة بقطعي الدلالات في القرآن والسنة ، لكن حديث الشفاعة الطويل الذي رواه أنس بن مالك تغير وأبني فيه الآن وأنا أراه موضوعاً وهو من الإسرايليات وإن كان في الصحيحين ، وقد تكلمت عليه في التعليق على كتاب العلو للذهبي فأرجع إليه إن شئت .

وسلم : « حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم فإذا أنا مت كانت وفاتي خير لكم تعرض علي أعمالكم فإن رأيت خيراً حمدت الله وإن رأيت شراً استغفرت لكم » رواه البزار قال الحافظ أبو الحسن نور الدين الهيثمي رجاله رجال الصحيح^(٢٣٣) .

فمن ذلك يتضح لك أن شفاعته ليست مختصة بيوم القيامة فقط بل في الدنيا أيضاً بعد وفاته .

وليس لمن يمنع التوسل والتشفع به صلى الله عليه وآله وسلم بعد موته حجة صحيحة صريحة يصلح التمسك بها إلا تضعيف الأحاديث الواردة في ذلك ولا حق لهم في ذلك كما سنبين وتعمية الحق عن العوام بالمغالطة .

فأما التوسل فمعناه لغة : التقرب ، وأما اصطلاحاً : فهو التقرب والتشفع إلى الله عز وجل بمنزلة نبي أو ولي أو بالطلب من النبي أو الولي الدعاء للمستشفع بهم أن يقضي الله حاجته بشرط أن يكون المتوسل مؤمناً مقبلاً على الله راعياً .

قال الراغب في المفردات : « الوسيلة التوصل إلى الشيء برغبة وهي أخص من الوصيلة لتضمنها لمعنى الرغبة قال تعالى : ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى مراعاة سبيله بالعلم والعبادة وتحري مكارم الشريعة وهي كالقربة ، والواصل الراغب إلى الله تعالى » .

أقول : ويستفاد هذا المعنى من أهل العلم في توسلهم منهم الحافظ ابن حجر العسقلاني حيث يخاطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متوسلاً في قصيدة ستأتي إن شاء الله تعالى في الفصل الثالث منها قوله رضي الله عنه :

بِكُمْ تَوَسَّلَ يَرْجُو الْعَفْوَ عَنْ زَلَلٍ مِنْ خَوْفِهِ جَفَّةُ الْهَامِي لَقَدْ ذَرَفَا

وأعلم أيضاً أرشدك الله للصواب أنه تقرر عند العقلاء أن الصفة لا تنفك أو لا تفارق الموصوف فمن قال أنا أتوسل بمنزلة النبي ولا أتوسل بذاته فهو بعيد عن جادة العقل والصواب ، إذ كيف تنفك الصفة عن الموصوف !!؟

وأما الجاه فمعناه أيضاً المنزلة ففي مختار الصحاح :

« الجاه القدر والمنزلة ، وفلان ذو جاه » .

فمما ذكرنا يتبين لك أن التوسل والتشفع وطلب الشيء بجاه وبمنزلة الشخص كله بمعنى واحد .

١ — فأول ما يستدل به على التوسل برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثبوت الشفاعة له صلى الله عليه وآله وسلم فاعلم أن الحفاظ والمحدثين رحمهم الله تعالى نقلوا لنا في كتبهم أنه مما تواتر : التوسل به صلى الله عليه وآله وسلم في حياته وقد ذكر ذلك الإمام المحدث الكشاني في كتابه « نظم المتناثر من الحديث المتواتر » الذي بناه على كتاب الإمام الحفاظ السيوطي ، وذكر أيضاً أنه ثبت وأجمعت الأمة على التوسل به صلى الله عليه وآله وسلم في عرصات القيامة في حديث الشفاعة الطويل وقد رواه من الصحابة اثنا عشر رجلاً . أقول وإجماع الأمة على أن الشفاعة يوم القيامة هي توسل به كما نقل ذلك الأئمة دليل واضح جلي كبير على أن معنى التوسل التقرب لرضي الرحمن ذلك اليوم بمنزلة الأنبياء ليسمع الله عز وجل في فصل القضاء وقد ثبت أيضاً بالأحاديث والآثار الصحيحة التوسل به قبل وفاته إذ لا فرق بين التوسل به قبل وفاته أو بعد وفاته ولا دليل — كما أسلفت — لمن يمنع التوسل به صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته .

٢ — ويستدل أيضاً للتوسل بحديث سيدنا عثمان ابن حنيف الصحابي المشهور في قصة الأعمى فقد روى الترمذي والنسائي والطبراني والحاكم والبيهقي بأسانيد صحيحة عن عثمان ابن حنيف وهو صحابي مشهور رضي الله عنه أن رجلاً ضريراً أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال ادع الله أن يعافيني فقال : « إن شئت دعوت وإن شئت صبرت وهو خير » . قال فادع . فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء : « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي لتقضي ، اللهم شفعة في » . فعاد وقد أبصر .

وفي رواية قال ابن حنيف :

فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأن لم يكن به ضر قط . وفي رواية الطبراني والبيهقي أن عثمان بن حنيف علم رجلاً أن يدعوا بهذا الدعاء بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم وهي رواية صحيحة صحيحها الإمام الطبراني الحفاظ ، وأقره الحفاظ نور الدين الهيثمي في مجمع الزوائد^(٢٣٤) ويستفاد من حديث سيدنا عثمان ابن حنيف في قصة الأعمى فوائد منها :

أولاً : أن الرجل جاء للنبي صلى الله عليه وآله وسلم يطلب منه أن يدعو له والنبي صلى الله عليه وآله وسلم له بل علمه دعاء يقوله بعد أن يتوضأ ويصلي ركعتين ويتوسل في الدعاء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الله تعالى ، والقاعدة الأصولية تقول إن العبرة بعموم اللفظ وأن الأمر عام

(٢٣٤) انظر « مجمع الزوائد » (٢ / ٢٧٨) . ولم ينكر أحد من الصحابة على عثمان ابن حنيف تعليمه التوسل لذلك الرجل فيكون هذا إقراراً منهم على مشروعته .

والنبي صلى الله عليه وآله وسلم مشرع فاستفاد العلماء أن هذا الدعاء الذي فيه توسل هو ما يسمونه دعاء صلاة الحاجة فذكروه في كتبهم في باب صلاة الحاجة ولم يذكروا أن ذلك لا يجوز أن يدعوا به مسلم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

ثانياً : إن معنى التوسل هو التَشَفُّع لقوله في آخر الحديث « اللهم فشفعه في » أي اجعله شافعاً لي فشفعه أي اقبل توسلي به . وهذا يؤكد تعريف التوسل الذي ذكرناه ، ويؤكد هذا أن في الحديث « يا محمد إني توجهت بك » وليس كما زعم بعضهم أن معنى « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك » أي بدعاء نبيك !! لأنه ذكر بعد ذلك عمداً تأكيداً وتصريحاً بالتوسل به وسياق الحديث يبعد هذا الادعاء .

ثالثاً : لو كان التوسل فيه شرك أو شائبة شرك ما علمه نبي الله صلى الله عليه وسلم للأعمى حين سأله أن يدعو الله له ، فقد علمه التوسل به . وإجازة التوسل في حياة المتوسل به لا بعد مماته لا يعتمد أصلاً شرعياً . وفعل سيدنا عمر رضي الله عنه ليس فيه إلا التوسل بالحي وفعل الشيء لا ينفي ما عساه كما هو مقرر في الأصول ، على أن للعلماء توجيهات لعمل سيدنا عمر نذكرها عند ذكر الحديث .

٣- ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني في « فتح الباري »^(٢٣٥) في الاستسقاء حديثاً في التوسل فقال : روى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح عن أبي صالح السمان عن مالك الدار وكان خازن عمر قال : أصاب الناس فحط شديد في زمن عمر فجاء رجل إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله استسق لأمتك فانهم قد هلكوا فأتي الرجل في المنام فقبل ائت عمر وأقرته السلام وأخبره أنهم يستقون .

وذكر الحافظ أن في إحدى روايات الحديث أن الراي هو بلال بن الحارث الصحابي المشهور وفي ذلك تقرير من الحافظ على التوسل به صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته وليس المراد الاستدلال بالرؤيا إنما المراد الاستدلال بالفعل ، فكيف فعل هذا الرجل أو هذا الصحابي هذا الفعل أمام الصحابة وآخر سيدنا عمر ولم ينكروا عليه ويصفوه بالشرك ؟ فحاشي الصحابة من الإقرار على الشرك حاشاهم ! وهم أعلم الناس بما يؤدي للشرك .

٤- وقد روي أيضاً أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لما دفن فاطمة بنت أسد أم سيدنا علي رضي الله عنهما : « اللهم بحق الأنبياء من قبلي اغفر لأمي بعد أمي » رواه ابن حبان في صحيحه والحاكم والطبراني في الكبير والأوسط وصححوه . ورجال الحديث رجال الصحيح إلا روح

ابن صلاح فيه ضعف لكن ذكره ابن حبان في « الثقات » ، وقال الحاكم : ثقة مأمون ، لذلك كان الحديث حسناً ، فقد قال الإمام ابن حجر الميمني في « الجوهر المنظم » هو سند جيد .
ففي الحديث توسله صلى الله عليه وآله وسلم بالأنبياء من قبله وقد توقاهم الله تعالى .

٥- وفي صحيح البخاري (١٠١٠) و (٣٧١٠) أن عمر رضي الله عنه استسقى عام الرمادة بالعباس رضي الله عنه عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن قوله توسلاً به : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا صلى الله عليه وآله وسلم وإنا نتوسل إليك بعم نبينا ، قال فيسقون .
وذكر العلماء أن اكتفائه بالاستسقاء بالعباس إذ لم يستسق بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم كان لدفع توهم عدم جواز الاستسقاء بغيره عليه وآله الصلاة والسلام لا لحق الاستسقاء بالحياة ظاهرة إذ أن الصحابة توسلوا به صلى الله عليه وآله وسلم بعد موته دون تكثير وقد أتينا بمثالين في ذلك فسيدنا عمر استسقى وتوسل بالعباس لدفع توهم عدم جواز التوسل إلا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولإظهار شرف آل البيت النبوي ، وقد توسل سيدنا عمر رضي الله عنه بالعباس لكثرة أخرى وهي جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل ، فإن سيدنا ومولانا علياً رضي الله عنه وكرم وجهه أفضل من عمه العباس فتوسل سيدنا عمر بالعباس لهذا الملاحظ . ولهذا قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » عند شرح هذا الحديث : « ويستفاد من قصة العباس استحباب الاستشفاع بأهل الحرم والصالح وأهل بيت النبوة وفيه فضل العباس وفضل عمر لتواضعه للعباس^(٢٣٦) » اهـ .
ولم يقل الحافظ إنه يستفاد من هذا الحديث أنه لا يجوز التوسل برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته .

وفي الحقيقة إن توسل الصحابة رضوان الله عليهم كان بملكات العباس ، وبلغاء العباس ، إذ ذكر الحافظ أن في بعض الروايات مما قال العباس في دعائه : « اللهم إن القوم توجهوا مبني إليك لمكاني من نبيك^(٢٣٧) » فلولا قربه ومكانته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للذهب سيدنا عمر لغيره من آل بيت النبوة فجعلوه وسيلتهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما قال الإمام الشافعي رضي الله عنه :

(٢٣٦) انظر « فتح الباري » ٤٩٧/٢ .

(٢٣٧) انظر « فتح الباري » ٤٩٧/٢ .

آل النبي ومـيـلتي وهم إليه ذريعتي
أرجو بهم أعطى غداً يدي اليمين صحتي

هذا وجميع ما أوردناه من الأحاديث والآثار الصحيحة الصريحة في التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته هي في الحقيقة شارحة لقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً ﴾ فالآية عامة في حياته قبل وفاته وبعد وفاته وما زال عمل العلماء على ذلك وقد ذكر العلماء المفسرون لهذه الآية كالحافظ ابن كثير حكاية العتي المشهورة عند العلماء في التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته على سبيل الإقرار والارتضاء ، وسنورد هذه الحكاية في الفصل الثالث إن شاء الله تعالى وفي ذلك يقول الإمام ابن حجر الهيتمي في القصيدة التي نظمها في إثبات حياة الأنبياء التي تشير إلى معنى الآية :

ولولا أنه حي حـريٌّ بادراكٍ كما نقل الفحول
لما سعت الشمس إليه حقاً تسلم حين تطلع أو تزول
وما كان الحجج إليه سعي ويرجو أن يكون له قبول

هذا وقد أثبتنا على ما أردنا من بيان الأدلة على جواز التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم واستجابته وبالله تعالى التوفيق .

الفصل الثالث

في بيان أن العلماء الأعلام من أئمة وحفاظ الإسلام توسلوا به صلى الله عليه وآله وسلم وأجازوا ذلك واستحبوه

اعلم برحمك الله تعالى أنا لما مراد أقوال الأئمة السابقين في التوسل فوضح أننا لم نسبق إلى قول لم يذكره أحد من المسلمين ، بل نحن نجمع ما قالوه إذ هم مرجعنا وعليهم تعويلنا ، وهم الذين أوصلوا حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلينا ، وقد أمرنا الله بسؤالهم والرجوع إليهم فقال سبحانه : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ وقال أيضاً مرعياً لنا أن نرد الأحكام إليهم : ﴿ ولو رددوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ فلا عبرة بكلام من قال نريد الأحاديث في المسألة ولا نزيد أقوال العلماء ، فهناك أقوالهم وآثارهم في ذلك :

أولاً : اعلم أن الإمام مالكا رضي الله عنه قال للخليفة المنصور لما حج وزار قبر النبي عليه وآله الصلاة والسلام وسأل مالكا قائلاً : يا أبا عبد الله ، أستقبل القبلة وأدعو أم استقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأدعو ؟ فقال الإمام مالك : ولم تصرف وجهك عنه وهو سيلتك ورسيلة إليك آدم إلى الله تعالى بل استقبل واستشفع به فيشفعه الله فيك . قال تعالى : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾ . ذكر هذه القصة الإمام القاضي عياض في الشفا باسناد صحيح والسيد السمهودي في خلاصة الوفا والعلامة الفسطاطي في المراهب اللدنية والعلامة ابن حجر في الجوهر المنظم^(٢٣٨) .

ثانياً : وذكر الحافظ ابن كثير في تفسره^(٢٣٩) والإمام النووي في كتابه الإيضاح^(٢٤٠) قال الإمام النووي في الإيضاح :

بعد أن يسلم الزائر على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم أبي بكر ثم عمر رضي الله عنهما يرجع إلى موقفه الأول قبالة وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويتوسل به في حق نفسه ويشفع به إلى ربه سبحانه وتعالى ومن أحسن ما يقول ما حكاه أصحابنا — أي الشافعيون — عن العنبي مستحسن له

(٢٣٨) انظر كتاب ((الشفا)) للقاضي عياض (٩٢/٢) ، و ((شرح الشفا)) للمحدث ملا علي القاري (٦٣٦/٣) .

(٢٣٩) تفسير ابن كثير ٥١٩/١ - ٥٢٠ .

(٢٤٠) انظر حاشية ابن حجر على الإيضاح في المناك للنووي صحيفة ٤٩٨ .

قال : كنت جالساً عند قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ف جاء أعرابي فقال : السلام عليك يا رسول الله
سمعت الله يقول : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا
اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً ﴾ . وقد جئتك مستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك إلى ربي ثم أنشأ يقول :

يا خير من دلفت بالقاع أعظمه فظاب من طيبهن القاع والأكرم
نفسى القداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

قال العتي : ثم انصرف الأعرابي فغلقت عياني فرأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في النوم
فقال : يا عتي الحق الأعرابي وبشارة بأن الله قد غفر له . اع .
وقال الحافظ ابن كثير أنها حكاية مشهورة .

ثالثاً : وقال الإمام الشافعي متوسلاً بال النبي عموماً أحياء وأمواتاً كما في الصواعق لابن حجر
الهيتمي :

آل النبي وسبيلتي وهم إليه ذريعتي
أرجو بهم أعطى غداً بيدي اليهين صحيفتي

رابعاً : وثبت عن الإمام أحمد أنه قال : يستحب التوسل برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند
الاحتياط ، مذكور في كتب المناجاة في باب الاستسقاء ككتاب « الإنصاف فيما ترجع من الخلاف »
(٤٥٦/٢) .

خامساً : وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني بمدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قصيدة
ويتوسل به :

بباب جودك عبد مذنب كلّف يا أحسن الناس وجهاً مشرقاً وقفنا
بكم توسل يرجو العفو عن زلل من خوله جفنة الهامي لقد ذرفنا
وإن يكن نسبة يعزّي إلى حجر فظالم فاض عذباً طيباً وصفنا
والمُدح فيك قصور عنكم وعسى في الخلد يبدل من أبياته عُرقنا
لا زال فيك مدحني ما حبيت له فما أرى لمدحني عنك متصرفنا

● انظر مجموعة القصائد النبهاية (٣٩٦/٢) وديوان الحافظ ابن حجر العسقلاني .

سادساً : وقال ابن حجر الهيتمي في قصيدته المشهورة التي ذكرها العلامة الشيخ محمد حبيب الله

الشنقيطي وغيره : **عَبَدَ هَيْمَى مُسْتَجِرٌ** **بِمَنْ حَطَّتْ بِسَاحَتِهِ الْهَمُولُ**

سابعاً : وقال الحافظ ابن دقيق العيد في قصيدة له يمدح فيها النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويتوسل

به :

يا خاتم الرسل الكرام نداء من والي إليك بمدحه مستعذرا
أنا ضيقك المدعو يوم معادنا المرتجي فاجعل قراري الكوثر

ثامناً : وقال ابن حجر العسقلاني أيضاً كما هو في ديوانه بخط القلم :

اصدح بمدح المصطفى واصدع به قلب الحسود ولا تخف تفبيدا
واقصد له واسأل به تعطى المنى وتعيش مهما عشت فيه سعيدا
خير الأنام فمن أرى لجناحه لا بدع أن أضحي به مسعودا

انظر مجموعة القصائد النبهانية (٥٧/٢) .

تاسعاً : قال العلامة المناوي في « فيض القدير » (١٣٥/٢) قال الإمام الحافظ السبكي : « ويحسن التوسل والاستعانة والتشفع بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى ربه ولم ينكر ذلك أحد من السلف ولا من الخلف » .

الفصل الرابع

في رد شبه مانعي التوسل

اعلم يرحمك الله تعالى أن مانعي التوسل ليس لهم في الحقيقة حجة صريحة من القرآن أو صحيحة من السنة بل ربما ذكر أحدهم قوله تعالى في كفار قريش وهم يعبدون الأصنام : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُوا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ . والجواب عن الآية الشريفة أن أولئك عبدوا الأصنام فسجدوا لها واتخذوها آلهة ونحسن لم نتخذ الأنبياء والأولياء آلهة ولم نعبدهم لذلك قال تعالى يصف عبدة الأوثان : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ فسقط احتجاجهم .

وفي الحقيقة هم يتكرون التوسل من أربع طرق :

الأولى : تضعيف الأحاديث الواردة في التوسل وليسوا أهلاً لذلك كما سنذكر في القاعدة الحديثة في هذا الفصل إن شاء الله تعالى .

الثانية : تأويل الأحاديث وصرفها عن ظاهرها تأويلاً باطلاً ومغالطة .
الثالثة : اعتمادهم على الرأي الفاسد في إبطال الأحاديث فإذا مر بهم حديث لا يوافق أهواءهم قالوا هذا الحديث لا يقبله العقل والرأي ، وكان علم الحديث خاضع لعقولهم فما قبله عقولهم فهو صحيح وما لم تقبله عقولهم فليس بصحيح .
الرابعة : إيراد أحاديث باطلة يرددها بعض من يتنسب إلى التصوف زوراً وبهتاناً . ويبينون أنها باطلة فيظن الجاهل أنه إذا اتضح أنها باطلة موضوعة ثبت منع التوسل وهيئات ونحن نمثل لك هذه الطرق الأربعة :

فأما طريقهم الأول وهو تضعيفهم للأحاديث الصحيحة فنورد لك مثالين :
١ — حديث سيدنا عثمان بن حنيف حينما علم رجلاً بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يدعو بالدعاء الذي سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقضاء حاجته وقد رواه الحافظ الطبراني وصححه وأقره عليه الحافظ أبو الحسن الهيثمي كما في « مجمع الزوائد » (٢/٢٧٩) وضعفه صاحب كتاب « التوصل إلى حقيقة التوسل » صحيفة (٢٣٧) بحجج واهية وهو ليس اهلاً للتصحيح ولا للتضعيف .

٢ — حديث عبد الله بن مسعود مرفوعاً « حياتي خير لكم ... » الحديث .
ذكر الحافظ أنه صحيح رواه البزار ، وقال الحافظ أبو الحسن الهيثمي في « مجمع الزوائد » رجاله رجال الصحيح . وقد ذكر الحافظ السيوطي في الجامع الصغير أنه رواه البخاري في مسنده بسند ضعيف وابن سعد في الطبقات بإسناد حسن مرسل ، وفاته أن البزار قد رواه بسند صحيح كما في « شرح الجامع » حيث تعقبه العلماء فاغتنم ذلك منكروا التوسل وعلموا أن الناس يتكاسلون عن مراجعة هذا الحديث في شرح الجامع فقالوا : هو حديث ضعيف ومرسل فلا يحتج به كما في الكتاب المسمى « الإسلام والغلو في الدين » وهي عبارة علمية غير مستغربة من هؤلاء .

وأما طريقهم الثاني وهو تأويلهم للأحاديث تأويلاً باطلاً مخالفاً للحقيقة فمثاله حديث الأعمى أيضاً حيث جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يطلب منه أن يدعو له ليرد الله عليه بصره فلم يدع له النبي صلى الله عليه وآله وسلم بل علمه شيئاً آخر بعدما قال له :

« إن شئت دعوت وإن شئت صبرت » وقال له : « اذهب فأحسن الوضوء وصل ركعتين ثم قل اللهم إني أتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي لتقضي اللهم شفعة في » ، أي : اقبل توسلي به ، وهم يقولون إنه لم يتوسل بالنبي إنما توسل بدعاء النبي ! وآخر الحديث ينقض ما قالوا فهذا تأويل باطل ، لا يضمن ولا يغني من جوع .

وأما طريقهم الثالث وهو اعتمادهم على وزن الحديث بأوهامهم فإن قبلت أوهامهم ذلك صححوه وإلا حكموا بضعفه أو بوضعه .

فقد قال صاحب كتاب « التوصل » صحيفة (٢٣٤) في حديث الطبراني في قصة الأعمى : أن هذا الحديث تتجلى فيه الصنعة في تركيب وترتيب الأفكار الواردة فيه ١١ فليراجع للتوسع .
وأما طريقهم الرابع وهو إيراد الأحاديث الموضوعة التي يخرج بها بعض عوام المتصوفة من غير العلماء وبيان أنها موضوعة ليظن العوام أن أدلة التوسل هُدمت فيعتقدون أنه غير جائز .
فقد ذكر في الكتاب المسمى « الإسلام والغلو في الدين »^(٢٤١) صحيفة (٢٢) حديث « توسلوا بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم » . وبينوا أنه موضوع وهو كذلك ليوهموا القاريء بأن أدلة التوسل هُدمت ببيان وضع هذا الحديث .

الخاتمة

هذا وأختم هذه الرسالة بعون الله تعالى بقاعدة عظيمة ينبغي معرفتها والتمسك بها إذ بها يهدم تصحيح وتضعيف من يدعي علم الحديث وهو ليس بأهل لذلك في هذا الزمان وغيره .

وملخصها : أنه لا يجوز لغير المتمكن الممارس قوي المعرفة في الحديث وعلومه أن يصحح حديثاً بعد زمن ابن الصلاح شيخ شيخ النووي ولا يجوز للحافظ أن يضعف حديثاً بعد ابن الصلاح^(٢٤٢) إلا الأحاديث التي لا تخفى كأحاديث القصاص الموضوعة أو ما فيه مخالفة للعقل والإجماع ، لخص هذه القاعدة الحافظ السيوطي في ألفيته في المصطلح حيث قال :

وَعَدَهُ حَيْثُ حَافِظٌ عَلَيْهِ نَصٌّ وَمَنْ مَصْنَفٌ بِمَجْمَعِهِ يُخَصَّصُ

قال السيوطي والحافظ هو من حوى مائة ألف حديث حفظاً وفهماً رواية ودراية مع علمه بأسانيدها ورجاها منه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفي ذلك قال بعضهم :

(٢٤١) وسماه مؤلفاه فيما بعد « أوهابية أم كتاب وسنة » بعد أن طبعاه حديثاً ليوهما أنهما ألفا كتاباً جديداً في الفكر الوهابي الذي يخدمه ويتقاضيان عليه أجراً !!

(٢٤٢) كنا نقول ذلك في أثناء الطلب ونحن الآن نخالف ابن الصلاح في ذلك فنقول بأنه يجوز لمن تمكن وقويت معرفته بهذا الفن أن يصحح ويضعف وهو عمل الحافظ والمحدثين بعد ابن الصلاح ، فقد خالفوه ولم يلتفتوا فعلياً لما قال وإن ناقشوا عبارته نظرياً في كتب المصطلح فوافقوه عليها من جهة وخالفوه عليها من الجهة أخرى .

ومن حوى مائة ألف مطلقا عليه لفظ حافظ قد اطلقا

كما ذكر في « رفع الأستار عن محيا طلعة الأنوار » صحيفة ٩ .

وقد ألحق العلماء بالتصحيح التحسين فذكروا أنه يجوز للحافظ أن يحسن ، ثم ألحقوا التوضيح بالتضعيف فذكروا أنه لا يجوز للحافظ أن يحكم بالوضع على حديث بعد زمن ابن الصلاح فالخلاص كما قال الحافظ جلال الدين السيوطي في « تدريب الراوي » (١/١٤٩) أن ابن الصلاح سد باب التصحيح والتحسين والتضعيف على أهل هذه الأزمان لضعف أهليتهم ولم يوافق ابن الصلاح على الأول — أي التصحيح — ووافقوه على الثاني وهو التضعيف .

وان أردت التوسع في المسألة والإحاطة بها أكثر فانظر « تدريب الراوي » (١/١٤٣-١٤٩) و « فتح المغيث شرح ألفية الحديث » للحافظ السخاوي (١/٤٤-٤٥ و ٨٩) الفقرة الأخيرة في الصحيفة .

وبالله تعالى حسن الختام وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . فرغت من كتابته يوم الخميس لليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة خمس وأربعمائة وألف . والحمد لله رب العالمين .

قال السيد العلامة ابن عبيد الله السقاف :

ومعرض قال من غير نور	عهدناك حرباً لأهل الفرور
تشن النكير لحزب القبور	لما لك تنكر هذا الصنيع
فقلت استمع حجتي يا بغيض	وهل تقاس السرى بالخضوض
على أن من كان جنل القريض	يراعى الجواز لأهل البديع
لما في التوسل لي من ملام	ولا في مناجاة ما حي الظلام
وراجع كلام ابن عبد السلام	غزير المعارف شيخ الجميع
وهذي الأدلة تكفي القطبين	ومن لم تفده فهي فيه طين
وشوط الأدلة عندي بطين	وحسبك هذا تلاً تضع